

القدس فى اعتقاد المسلمين

القدس فى الاعتقاد الإسلامى ، لها مكانة دينية مرموقة ، اتفق على ذلك المسلمون بجميع طوائفهم ومذاهبهم وتوجهاتهم ، فهو إجماع الأمة كلها من أقصاها إلى أقصاها . ولا غرو أن يلتزم جميع المسلمين بوجوب الدفاع عن القدس ، والغيرة عليها ، والذود عن حماها ، وحرماتها ومقدساتها ، وبذل النفس والنفيس فى سبيل حمايتها ، ورد المعتدين عليها . وقد اختلف المسلمون ، والعرب ، والفلسطينيون فى الموقف من قضية السلام مع إسرائيل : هل يجوز أو لا يجوز؟ وإن جاز : هل ينجح أو لا ينجح؟ ولكنهم جميعا - مسلمين وعرباً وفلسطينيين - لم يختلفوا حول عروبة القدس ، وإسلاميتها ، وضرورة بقائها عريية إسلامية ، وفرضية مقاومة المحاولات الإسرائيلية المستميتة لتهويدها ، وتغيير معالمها ، ومسح شخصيتها التاريخية ، ومحو مظاهر العروبة والإسلام والمسيحية منها . فللقدس قدسية إسلامية مقدورة ، وهى تمثل فى حس المسلمين ووعيمهم الإسلامى : القبلة الأولى ، وأرض الإسراء والمعراج ، وثالث المدن المعظمة ، وأرض النبوات والبركات ، وأرض الرباط والجهاد كما سنبين ذلك فيما يلى .

القدس : القبلة الأولى :

أول ما تمثله القدس فى حس المسلمين وفى وعيهم وفكرهم الدينى : أنها (القبلة الأولى) التى ظل رسول الله ﷺ وأصحابه يتوجهون إليها فى صلاتهم منذ فرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج فى السنة العاشرة للبعثة المحمدية ، أى قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وظلوا يصلون إليها فى مكة ، وبعد هجرتهم إلى المدينة ، ستة عشر شهراً ، حتى نزل القرآن يأمرهم بالتوجه إلى الكعبة ، أو المسجد الحرام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٥٠). وفى المدينة المنورة معلم أثرى بارز يؤكد هذه القضية ، وهو مسجد القبلتين ، الذى صلى فيه المسلمون صلاة واحدة بعضها إلى القدس ، وبعضها إلى مكة. وهو لا يزال قائماً ، وقد جدد وتعهد ، وهو يزار إلى اليوم ويصلى فيه .

وقد أثار اليهود فى المدينة ضجة كبرى حول هذا التحول ، ورد عليهم القرآن بأن الجهات كلها لله ، وهو الذى يحدد أيها يكون القبلة لمن يصلى له : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: ١٤٢) إلى أن يقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ

مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۖ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ۝ (البقرة: ١٤٣). فقد قالوا : إن صلاة المسلمين تلك السنوات قد ضاعت وأهدرت ، لأنها لم تكن إلى قبة صحيحة ، فقال الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ۝ ﴾ أى صلاتكم ، لأنها كانت صلاة إلى قبة صحيحة مرضية عنده عز وجل .

القدس أرض الإسراء والمعراج :

وثانى ما تمثله القدس فى الوعى الإسلامى : أن الله تعالى جعلها منتهى رحلة الإسراء الأرضية ، ومبتدأ رحلة المعراج السماوية ، فقد شاءت إرادة الله أن تبدأ هذه الرحلة الأرضية المحمدية الليلية المباركة من مكة ومن المسجد الحرام ، حيث يقيم الرسول ﷺ ، وأن تنتهى عند المسجد الأقصى ، ولم يكن هذا اعتباطاً ولا جزافاً ، بل كان ذلك بتدبير إلهى ولحكمة ربانية ، وهى أن يلتقى خاتم الرسل والنبيين هناك بالرسل الكرام ، ويصلى بهم إماماً ، وفى هذا إعلان عن انتقال القيادة الدينية للعالم من بنى إسرائيل إلى أمة جديدة ، ورسول جديد ، وكتاب جديد : أمة عالمية ، ورسول عالمى ، وكتاب عالمى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ (الفرقان: ١)

لقد نص القرآن على مبتدأ هذه الرحلة ومنتهاها بجلاء فى أول آية فى السورة التى حملت اسم هذه الرحلة (سورة الإسراء) فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ: ١﴾. والآية لم تصف المسجد الحرام بأى صفة مع ماله من بركات وأمجاد ، ولكنها وصفت المسجد الأقصى بهذا الوصف ﴿الَّذِى بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ ، وإذا كان ما حوله مباركاً ، فمن باب أولى أن يكون هو مباركاً .

وقصة الإسراء والمعراج حافلة بالرموز والدلالات التى توحى بأهمية هذا المكان المبارك ، الذى ربط فيه جبريل البراق ، الدابة العجيبة التى كانت وسيلة الانتقال من مكة إلى القدس ، وقد ربطها بالصخرة حتى يعود من الرحلة الأخرى ، التى بدأت من القدس أو المسجد الأقصى إلى السموات العلا ، إلى « سدرة المنتهى » ، وقد أورث ذلك المسلمين من ذكريات الرحلة : الصخرة ، وحائط البراق .

لو لم تكن القدس مقصودة فى هذه الرحلة ، لأمكن الخروج من مكة إلى السماء مباشرة ، ولكن المرور بهذه المحطة القدسية أمر مقصود ، كما دل على ذلك القرآن الكريم والأحاديث الشريفة .

ومن ثمرات رحلة الإسراء : الربط بين مبتدأ الإسراء ومنتهاه ،
وبعبارة أخرى بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وهذا الربط
له إيحائه وتأثيره فى وعى الإنسان المسلم وضميره ووجدانه ،
بحيث لا تنفصل قدسية أحد المسجدين عن قدسية الآخر ، ومن
فرط فى أحدهما أوشك أن يفرط فى الآخر .

القدس ثالث المدن المعظمة :

والقدس ثالث المدن المعظمة فى الإسلام ؛ فالمدينة الأولى فى
الإسلام هى مكة المكرمة ، التى شرفها الله بالمسجد الحرام .
والمدينة الثانية فى الإسلام هى طيبة ، أو المدينة المنورة ، التى
شرفها الله بالمسجد النبوى ، والتى ضمت قبر الرسول ﷺ .
والمدينة الثالثة فى الإسلام هى القدس أو بيت المقدس ، والتى
شرفها الله بالمسجد الأقصى ، الذى بارك الله حوله ، وفى هذا صح
الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، عن
النبي ﷺ أنه قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد :
المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » .

فالمساجد كلها متساوية فى مثوبة من صلى فيها ، ولا يجوز
للمسلم أن يشد رحاله ، بمعنى أن يعزم على السفر والارتحال
للصلاة فى أى مسجد كان ، إلا للصلاة فى هذه الثلاثة المتميزة .
وقد جاء الحديث بصيغة الحصر ، فلا يقاس عليها غيرها .

وقد أعلن القرآن عن أهمية المسجد الأقصى وبركته ، قبل بناء المسجد النبوى ، وقبل الهجرة بسنوات ، وقد جاءت الأحاديث النبوية تؤكد ما قرره القرآن ، منها الحديث المذكور ، والحديث الآخر : « الصلاة فى المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة فى غيره من المساجد ، ما عدا المسجد الحرام ، والمسجد النبوى » [متفق عليه] ومنها ، ما رواه أبو ذر ، أن النبى ﷺ سئل : أى المساجد بنى فى الأرض أول؟ قال : « المسجد الحرام » ، قيل ثم أى؟ قال : « المسجد الأقصى »^(١).

والإسلام حين جعل المسجد الأقصى ثالث المسجدين العظيمين فى الإسلام ، وبالتالى أضاف القدس إلى المدينتين الإسلاميتين المعظمتين : مكة والمدينة ، إنما أراد بذلك أن يقرر مبدأ هاما من مبادئه ، وهو أنه جاء لينبى لا يهدم ، وليتمم لا ليحطم ، فالقدس كانت أرض النبوات ، والمسلمون أولى الناس بأنبياء الله ورسله كما قال الرسول ﷺ ليهود المدينة : « نحن أولى بموسى منكم » .

القدس أرض النبوات والبركات :

والقدس جزء من أرض فلسطين ، بل هى غرة جبينها ، وواسطة عقدتها ، ولقد وصف الله هذه الأرض بالبركة فى خمسة مواضع فى كتابه :

(١) حديث متفق عليه .

أولها : فى آية الإسراء حين وصف المسجد الأقصى بأنه :
﴿ الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء: ١).

وثانيها : حين تحدث فى قصة خليله إبراهيم ، فقال : ﴿ وَنَجِّنَاهُ
وُلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧١).

وثالثها : فى قصة موسى ، حيث قال عن بنى إسرائيل بعد إغراق
فرعون وجنوده : ﴿ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ
مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

ورابعها : فى قصة سليمان وما سخر الله له من ملك لا ينبغى
لأحد من بعده ، ومنه تسخير الريح ، وذلك فى قوله تعالى :
﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهٖ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا
فِيهَا ﴾ (الأنبياء: ٨١).

وخامسها : فى قصة سبأ ، وكيف منَّ الله عليهم بالأمن والرغد ،
قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى
ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمُرُ ءَامِنِينَ ﴾
(سبأ: ١٨). فهذه القرى التى بارك الله فيها هى قرى الشام وفلسطين.

قال المفسر الألوسى : المراد بالقرى التى بورك فيها : قرى
الشام ، لكثرة أشجارها وثمارها ، والتوسعة على أهلها . وعن

ابن عباس : هى قرى بيت المقدس ، وقال ابن عطية : إن إجماع المفسرين عليه ^(١).

وقد ذهب عدد من مفسرى القرآن من علماء السلف والخلف فى قوله تعالى : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ ^(١) وَطُورِ سَيْنِينَ ^(٢) وَهَذَا أَلْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿ (التين: ١-٣) إلى أن التين والزيتون يقصد بهما الأرض أو البلدة التى تنبت التين والزيتون ، وهى بيت المقدس .

قال ابن كثير : قال بعض الأئمة : هذه محالّ ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولى العزم ، أصحاب الشرائع الكبار . فالأول : محل التين والزيتون ، وهو بيت المقدس ، الذى بعث الله فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام ، والثانى : طور سيناء ، الذى كلم الله عليه موسى بن عمران ، والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمناً . وبهذا التفسير أو التأويل ، تتناغم وتنسجم هذه الأقسام ، فإذا كان البلد الأمين يشير إلى منبت الإسلام رسالة محمد ، وطور سينين يشير إلى منبت اليهودية رسالة موسى ، فإن التين والزيتون يشيران إلى رسالة عيسى ، الذى نشأ فى جوار بيت المقدس ، وقدم موعظته الشهيرة فى جبل الزيتون ^(٢).

(١) روح المعانى للكلوسى : ١٢٩ / ٢٢ .

(٢) تفسير القاسمى : ٩١٩٦ / ١٧ وقد ذكر أن الكلام الذى نقله ابن كثير هو من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

أرض الرباط والجهاد :

والقدس عند المسلمين هى أرض الرباط والجهاد . فقد كان حديث القرآن عن المسجد الأقصى ، وحديث الرسول عن فضل الصلاة فيه ، من المبشرات بأن القدس سيفتحها الإسلام ، وستكون للمسلمين ، وسيشدون الرحال إلى مسجدها ، مصلين لله متعبدين ، وقد فتحت القدس - التى كانت تسمى إيلياء - فى عهد الخليفة الثانى فى الإسلام عمر بن الخطاب ، واشترط بطريكها الأكبر صفرونيوس ألا يسلم مفاتيح المدينة إلا للخليفة نفسه ، لا لأحد من قواده ، وقد جاء عمر من المدينة إلى القدس فى رحلة تاريخية مثيرة ، وتسلم مفاتيح المدينة ، وعقد مع أهلها من النصارى معاهدة أو اتفاقية معروفة فى التاريخ باسم « العهد العمرى » أو « العهدة العمرية » أمنهم فيها على معابدهم وعقائدهم وشعائركم وأنفسهم وأموالهم ، وشهد على هذه الوثيقة عدد من قادة المسلمين ، أمثال : خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وعمر بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ^(١) .

وقد أعلم الله نبيه محمداً ﷺ بأن هذه الأرض المقدسة سيحتلها الأعداء ، أو يهددونها بالغزو والاحتلال ، ولهذا حرص أمته على الرباط فيها ، والجهاد للدفاع عنها حتى لا تسقط فى أيدي الأعداء ،

(١) تاريخ الطبرى ، طبعة دار المعارف بمصر ، الجزء الثالث ، ص ٦٠٩ .

ولتحريرها إذا قدر لها أن تسقط فى أيديهم . كما أخبر عليه الصلاة والسلام بالمعركة المرتقبة بين المسلمين واليهود ، وأن النصر فى النهاية سيكون للمسلمين عليهم ، وأن كل شىء سيكون فى صف المسلمين حتى الحجر والشجر ، وأن كلاً منهما سينطق دالاً على أعدائهم ، سواء كان نطقاً بلسان الحال أم بلسان المقال^(١) . وقد روى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من جابههم ، إلا ما أصابهم من لأواء (أى أذى) حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » ، قالوا : وأين هم يا رسول الله ؟ قال : « بيت المقدس وأكناف بيت المقدس »^(٢) .

* * *

(١) يشير إلى الحديث المتفق عليه عن ابن عمر وأبو هريرة .

(٢) رواه عبد الله بن أحمد فى المسند (٥ / ٢٦٩) . وقال : وجدت بخط أبى ..

وقال الهيثمى : رواه عبد الله بن أحمد (وَجَادَة عَنْ أَبِيهِ) والطبرانى ، ورجاله

ثقات (٧ : ٢٨٨) .